مقدمة لجغرافية السلوك

تارونا بانسال

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

بحلول منتصف ستينيات القرن الماضي ، أصبح استخدام التقنيات الإحصائية في البحث الدقيق مقبولاً على نطاق واسع لدى الجغرافيين . وقد حُسمت ثنائية الجغرافيا المنهجية مقابل الجغرافية الإقليمية ، حيث أصبح كلاهما الآن مُعترفاً به كمكونات مهمة في هذا التخصص ، على الرغم من ترابطهما وفائدتهما المتساوية . وقد أدرك الجغرافيون بشكل متزايد أن النماذج التي طُرحت واختُبرت بمساعدة التقنيات الكمية ، لم تُقدم وصفاً دقيقاً للواقع الجغرافي ، وكذلك للعلاقة بين الإنسان والبيئة . ونتيجةً لذلك ، كان التقدم نحو تطوير النظرية الجغرافية بطيئاً بشكل صارخ ، وكانت قدراتها التنبؤية ضعيفة . ووُجد أن نظريات مثل نظرية المكان المركزي ، القائمة على التقنيات الإحصائية والرياضية ، غير كافية لتفسير التنظيم المكاني للمجتمع . كما وُجهت انتقادات للعقلانية الاقتصادية في عملية صنع القرار، لأنها لا تُفسر سلوك الإنسان .

كان ذلك تطورًا نفسيًا في الجغرافيا البشرية ، إذ شدد على **دور العمليات الذاتية وعمليات صنع القرار التي تُحدث رابطًا بين البيئة والسلوك المكاني للإنسان** . ويمكن القول إن عدم الرضا عن النماذج والنظريات التي طورها الوضعيون ، باستخدام الأساليب الإحصائية القائمة على "العقلانية الاقتصادية" للإنسان ، أدى إلى تطوير النهج السلوكي في الجغرافيا . وقد طعن وولبرت في بديهية "الشخص الاقتصادي" الذي يسعى دائمًا إلى تعظيم ربحه . ففي ورقته البحثية المعنونة "عملية اتخاذ القرار في السياق المكاني" ، قارن وولبرت (1964) بين إنتاجية العمل الفعلية والمحتملة للمزارعين السويديين ، وخلص إلى أن الممارسات الزراعية المثلى غير قابلة للتحقيق . وخلص إلى أن المزارعين ليسوا مُحسِّنين ، بل مُرضين . وهكذا ، عد **السلوك البشري نتاجًا لعملية اتخاذ القرار**، وكان من الطبيعي أن تكون المعلومات المتوفرة لدى الإنسان غير كاملة ، وأن يتخذ خيارات غير مثالية ، بل ويكتفي بخيارات دون المستوى.

السلوك في الجغرافيا

تعتمد جغرافية السلوك بشكل كبير على "السلوكية" . وتُعدّ السلوكية نهجًا مهمًا، استقرائيًا إلى حد كبير، يهدف إلى بناء عبارات عامة من ملاحظات العمليات الجارية . يكمن جوهر النهج السلوكي في الجغرافيا في أن الطريقة التي يتصرف بها الناس تتوسطها معرفتهم للبيئة التي يعيشون فيها أو البيئة نفسها التي يواجهونها . في جغرافية السلوك ، يرتكز تفسير مشكلة الإنسان والبيئة على فرضية أن الإدراك البيئي والسلوك مرتبطان ارتباطًا وثيقًا . بعبارة أخرى ، تبنى النهج السلوكي وجهة نظر مفادها أنه يمكن تحقيق فهم أعمق للتفاعل بين الإنسان والبيئة من خلال دراسة مختلف العمليات النفسية التي يتعرف الإنسان من خلالها على البيئة التي يعيش فيها ، ودراسة كيفية تأثير هذه العمليات على طبيعة السلوك الناتج .

من أكثر الجوانب إثارةً للاهتمام وتطبيقًا في جغرافية السلوك العمل الذي يدرس الإدراك البشري للمخاطر البيئية . ويُعدّ العمل الرائد الذي قام به روبرت كيتس (1962) في إدارة السهول الفيضية أحد أسس هذا النهج . ويُشير إلى أن الطريقة التي يُدرك بها البشر عدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ ببيئتهم تلعب دورًا

هامًا في عملية صنع القرار . وقد طوّر مخططًا ذا صلة بمجموعة واسعة من السلوكيات البشرية . استند مخطط كيتس هذا إلى أربعة افتراضات :

1) يتحلى البشر بالعقلانية عند اتخاذ القرارات.
2) يتخذ البشر خياراتهم.
3) تُتخذ الخيارات بناءً على المعرفة.
4) تُقيّم المعلومات وفقًا لمعايير محددة مسبقًا.

لاحقًا ، قدّم كيرك (1952-1963) أحد أوائل النماذج السلوكية . في نموذجه ، أكد أن المعلومات نفسها ، في المكان والزمان ، تحمل معانٍ مختلفة لأشخاص من خلفيات اجتماعية واقتصادية وثقافية وعرقية مختلفة يعيشون في بيئة جغرافية متشابهة . يتفاعل كل فرد في المجتمع بشكل مختلف مع معلومة تتعلق بالمورد والمكان والبيئ ة. يمكن تفسير هذه النقطة بالاستشهاد بالمثال الاتي .

سهول نهر الغانج الهندي عالية الإنتاجية تحمل معانٍ مختلفة لأفراد مختلفين ينتمون إلى طبقات ومعتقدات وأديان مختلفة . ينظر الجات والغوجار والأهير والساييني والجوها والجاداس الذين يعيشون في القرية نفسها إلى بيئتهم بشكل مختلف . قد يرغب مزارع الجات في زراعة قصب السكر في حقله ، وقد يخصص الغادا والجوجا أرضهما لقصب السكر والقمح والأرز، وقد يرغب الأهير في زراعة محاصيل العلف للحيوانات الحلوب ، و يهتم ساييني دائمًا بالزراعة المكثفة ، وخاصةً زراعة الخضراوات . فبالنسبة لمزارع الخضراوات ، قد تُعد خمسة أفدنة من الأراضي الصالحة للزراعة حيازة كبيرة ، بينما يعد الجات الذي يستخدم الجرارات 25 فدانًا حيازة صغيرة . وبالتالي ، تختلف البيئة المُدركة لكل من هؤلاء المزارعين الذين يعيشون في البيئة نفسها من حيث المكان والزمان.

وكان مفهوم **الخرائط الذهنية** ، من منظور التحليل السلوكي ، هو الجانب الذي تبناه الجغرافيون بحماس كبير . وكانت ورقة بيتر جولد (1966) بمثابة المساهمة الأساسية في هذا الصدد . إذ يشير إلى أنه بما أن القرارات المتعلقة بالموقع تسترشد بالطريقة التي يدرك بها الإنسان البيئة ، فمن الضروري أن يكون للجغرافي صورة ذهنية عن كيفية إدراكه لبيئته أثناء اتخاذ القرارات . لذلك ، فإن الخرائط الذهنية ليست مجرد صور أو خرائط ، بل هي مزيج من المعلومات والتفسيرات التي يمتلكها الشخص حول شيء معين ، بالإضافة إلى كيفية إدراكه لذلك المكان (جونستون، 1986) . وقد طور غولد (1966) ، وداونز (1970)، وداونز وستيا (1973) ، وغولد ووايت (1974) ، وسارينن (1979) هذا المفهوم من خلال كتاباتهم .

يرى غولد أن الخرائط الذهنية ليست مجرد وسيلة لفحص مجال تفضيل الشخص المكاني ، بل توفر أيضًا نظرة ثاقبة على العمليات التي أدت إلى هذا القرار المحدد . ويذكر أن الخرائط الذهنية قد توفر مفتاحًا لبعض هياكل وأنماط وعمليات عمل الإنسان على سطح الأرض . يوضح الشكل 1 الإطار المفاهيمي الذي قدمه داونز (1970). يقترح هذا الإطار أن المعلومات من البيئة (العالم الحقيقي) تُصفّى بناءً على الشخصية والثقافة والمعتقدات والمتغيرات المعرفية لتكوين صورة ذهنية عن الشخص الذي يستخدم بيئته . بناءً على هذه الصورة الذهنية ، يتخذ المستخدم قرارًا ويستخدم الموارد لتلبية احتياجاته الأساسية والعليا . كما يقترح إطار داونز وجود بيئة "موضوعية" وأخرى "سلوكية" .

Figure 1
Environmental Perception and Behaviour (after Downs, 1970)

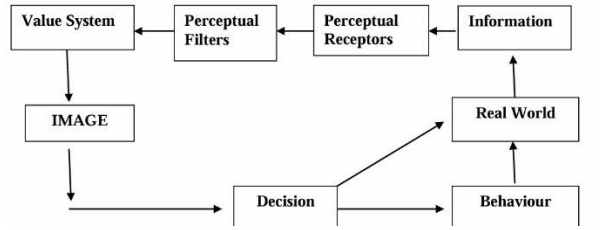

قدّم بريد (1969) بديلاً لهذا النهج الاستقرائي للسلوكيين ، مستنداً إلى نظرية مبنية على "الإنسان الاقتصادي" . في عمله "السلوك والموقع" ، يقترح مصفوفة سلوكية (الشكل 2) لإعطاء هيكل يُمكن من خلاله تحليل قرارات المواقع . محاور المصفوفة هي جودة وكمية المعلومات المتاحة والقدرة على استخدامها ؛ ويقع الإنسان ككائن اقتصادي في الزاوية اليمنى . ونظرًا لاختلاف كمية ونوعية المعلومات ، فإن موقع الإنسان على المحور سيتغير أيضًا . سيعكس موقعه مستويات طموحاته وخبراته ، بل وحتى معايير المجموعة التي قد ينتمي إليها . ويضيف أنه حتى الفرد نفسه لن يكون في الموقع نفسه ، إذ قد تختلف قراراته بمرور الوقت ، لأن الأنماط المكانية ليست ثابتة بطبيعتها .

Figure 2
Behavioural Matrix for Locational Decision Making (after Pred, 1969)

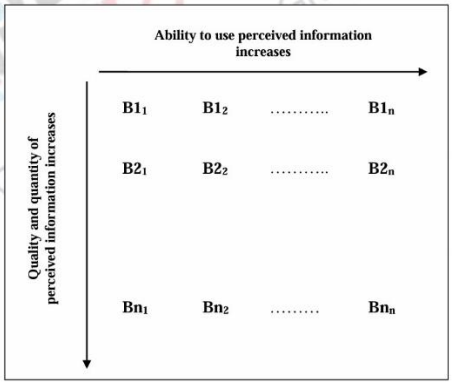

خلال سبعينيات القرن الماضي ، استُخدمت مجموعة من تقييمات الشخصية ذات الصلة ، مثل نظرية البناء الشخصي والتفاضل الدلالي ، وفي هذا العمل ، أصبحت الجغرافيا وعلم النفس جارين وثيقين (أيتكين، 1991؛ كيتشن، بليدز، وجوليدج، 1997) . وعلى وجه الخصوص ، تطورت هذه العلاقة المثمرة بين التخصصات من خلال الاجتماعات السنوية لجمعية أبحاث التصميم البيئي ، وفي صفحات المجلة الجديدة "البيئة والسلوك" . ومنذ تلك الفترة ، استمرت جغرافية السلوك في التنوع ، حتى وإن كانت مكانتها أقل ارتفاعًا مما كانت عليه في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي عندما عمل العديد من قادة التخصصات في هذا التخصص الفرعي . وشملت الأبحاث الأحدث تحليل التعلم البيئي ، والبحث المكاني ، وقضايا النمو في الإدراك المكاني ورسم الخرائط ، بالإضافة إلى عمل جوليدج المهم (1993) مع ذوي الإعاقة وضعاف البصر.

لكن بعضًا من بريقها قد اندثر. قد يُعزى ذلك جزئيًا إلى الحساسيات المنهجية للجغرافيا البشرية ما بعد الوضعية . ويعود ذلك جزئيًا إلى القناعة المتزايدة **بالطبيعة الاجتماعية المتأصلة للمعرفة الجغرافية** ،

والتي تُشكك في فردية النماذج النفسية . وينبع جزئيًا من الشك في كفاية نظرية معرفية قائمة على الملاحظة والقياس ، والتي قد تُغفل سياقات وتكوينات أيديولوجية غير قابلة للملاحظة والقياس . ومع ذلك ، فإن لجغرافية السلوك إرثٌ مستمر، مُفصّلٌ بشكلٍ شامل ومُدمجٌ في العمل الضخم الذي قام به غوليدج وستيمسون (1997)

كانت أهداف النهج السلوكي :

1- تطوير نماذج لظاهرة إنسانية تُقدم بديلًا لنظريات الموقع المكاني التي طُوّرت تحت تأثير الوضعية
2- تحديد البيئة المعرفية (الذاتية) التي تُحدد عملية اتخاذ القرار لدى البشر؛
3- وضع نظريات نفسية واجتماعية لاتخاذ القرار والسلوك البشري في إطار مكاني؛
4 - تغيير التركيز من التركيز على السكان الكلي إلى التركيز على نطاق مُجزأ من الأفراد والمجموعات الصغيرة
5- البحث عن أساليب أخرى غير تلك الشائعة خلال الثورة الكمية ، والتي يُمكنها الكشف عن البنية الكامنة في البيانات واتخاذ القرار؛
6 - التركيز على التفسيرات التسلسلية بدلاً من التفسيرات الهيكلية للنشاط البشري والبيئة المادية؛
7- توليد بيانات أولية حول السلوك البشري، وعدم الاعتماد بشكل كبير على البيانات المنشورة؛
8 - تبني نهج متعدد التخصصات لبناء النظريات وحل المشكلات.

تتمثل الحجج الأساسية لجغرافية السلوك لتحقيق هذه الأهداف في:

(أ) يمتلك الناس صورًا بيئية؛
(ب) يمكن للباحثين تحديد هذه الصور بدقة؛
(ج) توجد علاقة قوية بين الصورة البيئية والسلوك الفعلي أو عملية اتخاذ القرار لدى الإنسان.

يوضح الشكل 3 النموذج السلوكي . في هذا النموذج ، يُصوَّر الإنسان كفرد مفكر، تتوسط عملياته مع البيئة عمليات عقلية وتمثيل معرفي للبيئة الخارجية . في الأوساط الجغرافية ، يُشتق هذا المفهوم بشكل أساسي من عمل بولدينغ (1956) الذي اقترح أن انطباعات الأفراد التنموية عن العالم (الصور) تتشكل بمرور الوقت من خلال اتصالاتهم اليومية بالبيئة ، وأن هذه الصور تُشكل أساس سلوكهم .

Figure 3
A Conventional Model of Man-Environment Relationship (after Boulding, 1956)

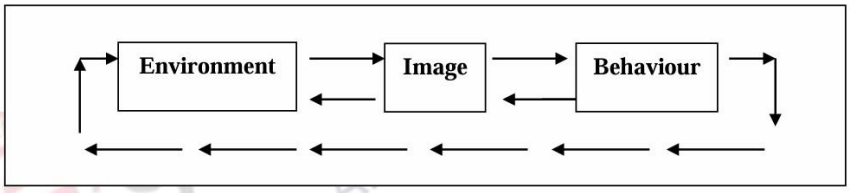

السمات البارزة لجغرافية السلوك

تُناقش السمات البارزة للجغرافيا السلوكية في القسم الاتي :

1) جادل جغرافيو السلوك بأن الإدراك البيئي (الإدراك) الذي يتصرف الناس بناءً عليه قد يختلف اختلافًا كبيرًا عن الطبيعة الحقيقية للبيئة الحقيقية للعالم الحقيقي . وبالتالي، يمكن القول إن المكان (البيئة) له طابع مزدوج:

(١) كبيئة موضوعية - عالم الواقع - يمكن قياسها بوسائل مباشرة (الحواس)؛ و
(٢) كبيئة سلوكية - عالم العقل - لا يمكن دراستها إلا بوسائل غير مباشرة.
مهما كانت البيئة السلوكية جزئية أو انتقائية ، فإن هذه البيئة هي أساس اتخاذ القرارات وتصرفات الإنسان . ويُقصد بالبيئة السلوكية : الواقع كما يدركه الأفراد . بمعنى آخر ، يتخذ الناس خيارات ، وتُتخذ هذه الخيارات بناءً على المعرفة . وهكذا ، كانت رؤية السلوك متجذرة في العالم كما يُدرك لا في عالم الواقع. وقد وضّح كوفكا (1935-1936) طبيعة الاختلاف بين هاتين البيئتين وآثارهما على السلوك بدقة ، في إشارة إلى حكاية سويسرية من العصور الوسطى عن رحلة شتوية .
2) يُولي جغرافيو السلوك وزنًا أكبر للفرد بدلًا من الجماعات أو المنظمات أو المجتمع . بعبارة أخرى ، ينصب تركيز الدراسة على الفرد ، وليس الجماعة أو المجتمع . ويؤكدون أن البحث يجب أن يُدرك حقيقة أن الفرد يُشكّل بيئته المادية والاجتماعية ويستجيب لها . في الواقع ، من الضروري إدراك أن تصرفات كل شخص لها تأثير على البيئة ، مهما كان هذا التأثير طفيفًا أو غير مقصود . الإنسان كائن هادف ، يؤثر على البيئة ، ويتأثر بها بدوره . باختصار، يُعدّ الفرد ، وليس مجموعة من الأشخاص أو المجموعة الاجتماعية ، أكثر أهمية في العلاقة بين الإنسان والطبيعة .
3) افترض النهج السلوكي في الجغرافيا وجود علاقة تفاعلية متبادلة بين الإنسان وبيئته ، حيث شكّل الإنسان البيئة وتأثر بها لاحقًا (جولد، 1980).
4) السمة الرابعة المهمة لجغرافية السلوك هي منظورها متعدد التخصصات . يستعين جغرافي السلوك بالأفكار والنماذج والنظريات التي وضعها علماء النفس والفلاسفة والمؤرخون وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الأعراق والمخططون . ومع ذلك ، فإن نقص النظريات الخاصة به يعيق التطور السريع لجغرافية السلوك .

لذلك ، يمكن القول إن النهج السلوكي في الجغرافيا نهج مثمر، ويساعد في إقامة علاقة علمية بين الإنسان وبيئته . إن النطاق الواسع لجغرافية السلوك أمر مثير للإعجاب حتى بمقاييس الجغرافيا البشرية.

الانتقادات

مع ذلك ، هناك تحيزات عامة في المحتوى تجاه المواضيع الحضرية وتجاه الدول المتقدمة . ومن أبرز نقاط الضعف في جغرافية السلوك افتقارها إلى تجميع النتائج التجريبية ، وضعف التواصل ، والتكرار غير المقصود ، وتضارب المصطلحات . ففي جغرافية السلوك ، تبقى المصطلحات والمفاهيم مُعرّفة بشكل فضفاض وضعيفة التكامل ، ويعود ذلك أساسًا إلى افتقارها إلى أساس نظري منظم منهجيًا .

ومن عيوب جغرافية السلوك أيضًا أن معظم بياناتها تُنتج من تجارب معملية على الحيوانات ، وتُطبق النتائج مباشرةً على السلوك البشري . أشار كويستلر (1975) إلى خطورة هذه الاستراتيجية ، إذ إن السلوكية "استبدلت مغالطة التشبيه - التي تُنسب إلى الحيوانات قدرات ومشاعر بشرية - بمغالطة معاكسة ؛ إذ تنكر قدرات الإنسان غير الموجودة في الحيوانات الدنيا ؛ واستبدلت النظرة التشبيهية السابقة للفأر بنظرة تشبيهية للإنسان " . باختصار ، تُعد النظريات السلوكية أنيقة ، لكنها غير مفيدة عندما يتعلق الأمر بفهم التفاعل الحقيقي بين الإنسان والبيئة .

كثيرًا ما ركزت جغرافية السلوك بشكل مبالغ فيه على التفسيرات الأنانية للبيئة . وينتقد الباحثون ، على وجه التحديد ، افتراضين يُبنى عليهما قدر كبير من البحوث السلوكية في الجغرافيا . الافتراض الأول هو وجود صور بيئية قابلة للتحديد ويمكن قياسها بدقة . ليس من الواضح ما إذا كان من الممكن استخلاص

صورة بيئية دون تشويه من مجمل الصور الذهنية . علاوة على ذلك ، لم يُبذل جهد كافٍ للتحقق من صحة الطرق التي تُستخرج بها الصور . الافتراض الحاسم الثاني هو وجود علاقة قوية بين الصور أو المراجع المكشوفة والسلوك الفعلي أو في العالم الحقيقي . والاعتراض الرئيسي على هذا الافتراض هو أنه افتراض لا أساس له من الصحة نظرًا لقلة الأبحاث التي أُجريت لدراسة التطابق بين الصورة والسلوك .

ومن العيوب المهمة الأخرى في جغرافية السلوك الفجوة بين النظرية والتطبيق . وقد تجلى ذلك بشكل أوضح في مسألة السياسة العامة . في الواقع ، ما يزال جغرافيو السلوك مراقبين بدلاً من مشاركين. وهناك نقص خطير في المعرفة بنظريات التخطيط وأساليبه بين جغرافيي السلوك ، مما يُمثل عائقًا أمام مشاركة أكثر فاعلية . وهو عائق لا يمكن إزالته إلا من خلال تطوير الفهم اللازم لعمليات التخطيط ؛ لا يُمكن إخفاؤها بمشاعر نبيلة ونبرة أخلاقية . على سبيل المثال ، نادرًا ما يُوفر استطلاع رأي صغير يُجرى على عينة من الطلاب أساسًا لتوصيات سياسية بعيدة المدى ، ومع ذلك ، فإن الفقرات الأخيرة من العديد من هذه الأعمال تحتوي على هذا العنصر الذي يبدو إلزاميًا .

على الرغم من العديد من القيود والقيود المنهجية ، تُعد جغرافية السلوك الآن مقبولة على نطاق واسع ضمن التوجه الوضعي . فهي تسعى إلى تفسير الأنماط المكانية من خلال وضع تعميمات حول العلاقة المتبادلة بين الناس والبيئة ، والتي يمكن استخدامها بعد ذلك لتحفيز التغيير من خلال أنشطة التخطيط البيئي التي تُعدّل المحفزات التي تؤثر على السلوك المكاني لنا وللآخرين . تختلف مناهج البحث في جغرافية السلوك اختلافًا كبيرًا ، إلا أن التوجه العام - التعميم الاستقرائي المؤدي إلى التخطيط للتغير البيئي - ما يزال قائمًا . ويُؤمل في نهاية المطاف ظهور "نظرية جديدة فعّالة" . جادل جوليدج بأن تقدمًا كبيرًا في فهم السلوك المكاني قد تحقق بالفعل من خلال دراسة "التفضيلات الفردية ، والآراء ، والمواقف ، والمعارف ، والخرائط المعرفية ، والإدراك ، وما إلى ذلك" - ما يُطلق عليه "متغيرات العمليات" .